في الادب الاندلسي

بقلم

الدكتور جبرائيل جبور

احد اساتذة الادب العربي في جامعة بيروت الاميركية

●

نشر في مجلة الابحاث ، جامعة بيروت الاميركية ، سنة ١٩٤٩

مطابع صادر ريحاني – تلفون ٦٢-٦٨

في الادب الاندلسي

بقلم

الدكتور جبرائيل جبور

احد اساتذة الادب العربي في جامعة بيروت الاميركية

●

نشر فى مجلة الأبحاث ، جامعة بيروت الاميركية ، سنة ١٩٤٩

مطابع صادر ريحاني – تلفون ٦٢–٦٨

في الادب الاندلسي

توطئة

الدراسات الاندلسية

لقد ابدى المستشرقون منذ اوائل القرن الثامن عشر عناية خاصة بدرس تاريخ الاندلس وادبها واثرهما في الادب الغربي وكان من الطبيعي ان تكون اسبانيا الميدان الاول لهذه الدراسات برغم ما تعرّضت له مكتباتها وكتبها العربية من محن وتلف واهمال منذ عهد البربر حتى اواخر القرن السابع عشر . وبالفعل فان جوان اندري (Juan Andrés) اليسوعي كان اوّل من التفت الى الشعر الاندلسي ونبّه الى أثره في شعر التروبادور (Troubadours) ثم عقبه كوندي (José Condé) فوضع كتاباً في تاريخ ملك العرب في اسبانيا نشر في مدريد سنة ١٨٢٠—١٨٢١ ثم ترجم من الاسبانيـــة الى الفرنسية والى الانكليزية وكان اساساً لكثير من الدراسات المتأخرة . ولم تخلُ البلدان الاخرى في اوربّة من باحثين سبقوا كوندي او عاصروه او تخلفوا عنه ككاردون (Denis Cardonne) بفرنسا وبورك (Thomas Bourke) بانجلترا واشباخ (Joseph Aschbach) بالمانيا وغيرهم . ثم كان لجاينخوس (Pascual de Gayangos) وفون هـــامر برجشتال (Von Hammer - Purgstall) بعد ذلك أثر كبير في تعميم هـــذه الدراسات ونشرها . غير ان الفضـــل الاكبر فيما يظهر يعود الى المستشرق الهولندي دوزي (R. Dozy) ولعلّ آثاره هي اعظم مـــا خلفته حتى الآن مدرسة الاستشراق في الدراسات الاندلسية . ومنذ عهد دوزي في منتصف القرن التاسع عشر الى اليوم

والدراسات الاندلسية تتسع وتنمو والاعتناء بها يشتد ويزداد بحيث اصبح من العسير الآن ان نذكر في هذه العجالة الموجزة اسماء جميع من عنوا بها .

والمهم في الأمر ان الكتب العربية والغربية لتاريخ الاندلس وادبها اخذت تعم ويتداولها الناس . ومنذ نشر نفح الطيب للمقري وترجم بعضه ونشر وفيات الاعيان لابن خلكان وتُرجم وطبعت كتب في تاريخ الاندلس ورجالها وآدابها في الشرق والغرب ككتب ابن حزم وابن طفيل وابن حيان والضبي وابن الفرضي والفتح ابن خاقان وابن صاعد وابن بشكوال وابن ابار ولسان الدين الخطيب وغيرهم اخذت الدراسات الاندلسية تتفرع واخذ المستشرقون يتعمقون ببعض النواحي فيها فهذا هارتمن Hartmann مثلاً يضع كتاباً في الالمانية في فن الموشح وهذا بونس بواجس (Pons Boigues) يضع كتاباً عن جمهرة من المؤرخين والشعراء الاندلسيين . حتى اذا دخل القرن العشرون طلع علينا ريبيرا (Julian Ribera) في دراسات كثيرة دار بعضها على ناحية خاصة ككتاب الموسيقى في الجزيرة العربية وأسبانيا . وكثر الالتفات الى النشر والترجمة وكان بين المستشرقين المتأخرين الدكتور نيكل (D. R. Nykl) فقد ترجم كتاب طوق الحمامة لابن حزم سنة ١٩٣١ الى الانكليزية وقدم له بدراسة موجزة في تاريخ الاندلس وادبها وسيرة ابن حزم ثم نشر بالاشتراك مع المرحوم ابراهيم طوقان كتاب الزهرة لابي بكر محمد ابن داود الاصفهاني سنة ١٩٣٢ وها هو اخيراً سنة ١٩٤٦ يضع كتاباً نفيساً في الشعر الاندلسي باللغة الانكليزية يضم طائفة من ابحاث كان قد نشر بعضها من قبل ويعرض في آخره الى علاقة هذا الشعر بشعر التروبادور[1] كذلك وضع الدكتور محمد شفيع سنة ١٩٤٠ فهرساً لكتاب العقد في طبعاته الرئيسية المختلفة قضى في اعداده كثيراً من السنين ونشر الاب ميلشور م . انطونية سنة ١٩٣٧ القسم الثالث من كتاب المقتبس في تاريخ رجال الاندلس لابن حيان. ولم يقتصر هذا التنبه على المستشرقين بل تعدّاه الى ابناء اللغة العربية انفسهم وقد وضع مؤلف هذه الرسالة كتاباً في ابن عبد ربه الاندلسي وعقده سنة ١٩٣٤ واخذت لجنة الترجمة والتأليف والنشر بنشر طبعة جديدة للعقد ظهر منها حتى الآن اربع مجلدات واخذت لجنة من رجال الجامعة المصرية بنشر كتاب الذخيرة في محاسن اهل

---

(١) انظر كتابه في الشعر الاندلسي : Hispano-Arabic Poetry Baltimore 1946
ومقدمته الممتازة التي نقلنا عنها بعض هذه المعلومات في اعلاه

الجزيرة لابن بسام وقد ظهر منه ثلاث مجلدات وقام الاستاذ الكيلاني بترجمة كتاب لدوزي في ملوك الطوائف والف كتاباً في بعض نواحي الادب الاندلسي . ومع ان كثيراً من الاصول العربية في تاريخ الاندلس وآدابها قد نشر فان الحاجة لا تزال ماسة الى نشر ما تبقي وفي كثير من الاحيان الى اعادة نشر ما نُشر مما لم تراعَ فيه الطريقة العلمية الحديثة في النشر . وما لم ينشر كل ما كتب عن الاندلس في اللغـــات المختلفة فان ما نعرفه عنها يظلّ ناقصاً . وفي نظري ان الادب الاندلسي حتى الآن لم ينل من العرب انفسهم ما يستحقه من العناية والتقدير .

الناحية التاريخية

في اليوم الذي عبر به طارق ابن زياد المضيق الفاصل بين افريقية واوربة بدأ تاريخ الاندلس العربي وقد آثرت وصف هذا التاريخ بالعربي لان الدولة التي كانت تقوم بهـــذا الفتح عربية ولأن الادب الذي اريد التحدث عنه عربي . ونستطيع تسهيلًا للبحث ان نقسم هذا التاريخ الذي نريد ان ندرس الادب فيه الى خمسة ادوار :

اولها الدور الآموي ، ثم دور ملوك الطوائف ، ثم دور المرابطين ، ثم دور الموحدين ، ثم دور بني الاحمر والجلاء .

الدور الاموي (٧١١–١٠٣١م.)

بدأ الدور الاموي عام الفتح عام سبعمئة واحد عشر ، وكان رجال الحملة مع طارق لا يزيدون عن سبعة الاف بينهم نحو ثلاثمائة عربي . ثم ما كادوا يشاهدون استعداد العدوّ وكثرة عدده حتى شعروا بقلتهم فطلبوا النجـــدة فارسل اليهم موسى ابن نُصير مدداً من خمسة آلاف . واستطاع طارق بهذا العدد القليل ان يقابل لذريق ملك القوط وجيشه الكثير بوادي بكة (Guadalete) وينتصر عليه ثم تابع زحفه متوغلًا في الجزيرة الاندلسية . وهنا تصل اخبـــار النصر الى موسى فيأمره بالتوّقف ويسير هو الاخر بنفسه على رأس حملة اخرى ويجوز الى العـدوة

الاندلسية من معبر آخر ويأخذ في الفتح ثم يلتقي الاثنـــان ويندفعان في الفتوح حتى قلب الجزيرة .

وتتابعت الحوادث واستطاعت جيوش الفاتحين ان تستولي في مدى سنوات سبع على اكثر بقاع الاندلس ثم عبرت بعد ذلك الثنايا (Pyrennes) الى فرنسا بقيادة آخرين واحتلت بوردو (Bordeaux) ثم اتجهت الى قلب البلاد بحيث كادت تصل باريس بعد عبورها المضيق بعشرين سنة . وهنا يقف سيل الفتح وتخف حدّته ويتراجع الفاتحون وكان ذلك في ساحة بواتيه (Poities) التي سماها العرب بلاط الشهداء . واقتصر الاحتلال فيما بعد على جنوبي فرنسة ثم تقلص الى جنوبي الثنايا . وظلّ الامر كذلك عشرين سنة اخرى تميّزت بانشقاقٍ بين الفاتحين واختلافٍ في كلمتهم وتمسك منهم بالعصبيات الجنسية والقبلية وتناحرٍ بين زعمائهم على الرئاسة . وتعاقب على الاندلس في مدى هذه الاربعين سنة نحو عشرين والٍ . وكان في هذه الاثناء ان زال الوهن من الدولة الاموية في المشرق فثـــار عليها بنو العباس وانتزعوا السلطة من الامويين وبذل السفاح العبـــاسي فيهم السيف فلم ينج الا القليل ، وكان من الناجين شاب اسمه عبد الرحمن فرّ الى مصر ومنها الى المغرب من غير عصابة ولا انصار سوى خادمه بدر ومن المغرب نهد الى الاندلس بعد ان مُهد له السبيل فاستطاع ان يغلب عاملها على امره ويستخلص الملك لنفسه، ثم تمكن بمساعدة واحدٍ من ابناء عمومته ، اسمه عبد الملك – وكان قد فرّ بعده من كيد العباسيين – انَ يعلن استقلال الاندلس عن سلطة الولاة في افريقية والخلفــاء في المشرق ويقطع الدعوة لآل العباس من منابر الاندلس . ولقد ابدى عبد الرحمن الداخل هذا من الجرأة والحزم ومضاء العزيمة ما جعل ابا جعفر المنصور يعترف له بالبأس والاقدام ويلقبه بصقر قريش .

ومر على الاندلس نحو مئتي سنة يتعاقب عليها الامراء من سلالة هـــذا البيت الاموي حتى ظهر عبـــد الرحمن الثالث . ولم تخل هذه الحقبة الطويلة من ثورات وفتن بين العرب انفسهم وبينهم وبين البربر . ولم تخل من غارات كان يشنها ملوك الاسبان كلما شعروا بضعف السلطان وكانت الفتن قد اشتدت قبـــل امارة عبد الرحمن فلما قلد زمام الامور نهد الى الميادين يخمد الفتن ويخضع العصاة ويجمع كلمة المسلمين ثم قام بغزوات موفقة لقهر المناوئين من ملوك الاسبان فدان اكثرهم له

ووفدوا الى بلاطه خاضعين وذاع صيته وانتشرت سطوته فوفد الى حضرته السفراء من القسطنطينية والمانيا وايطاليا وفرنسا .

وهنا يبدأ الانحلال في جسم الخلافة العباسية في المشرق ويشتد الوهن ويصبح الخليفة العوبة في ايدي الجند من مواليه فيعلن عبد الرحمن انه الخليفة في الاندلس ويلقب نفسه الناصر لدين الله .

عبد الرحمن الناصر

وكان الناصر اول خليفة في الاندلس واعظم ملوكها على الاطلاق بلغت الاندلس في زمنه اوج مجدها وضارعت قرطبة عاصمة ملكه بغداد في اعظم ايامها فكان فيها فيما يروون نصف مليون من السكان في مئة وثلاثة عشر الف بيت وثلاثة آلاف جامع وثلاثمائة حمام وثمان وعشرون ضاحية .بحيث لم يصبح لها في كل المغرب شبيه في كثرة الاهل وسعة المحال وفسحة الاسواق وكثرة العمارات والحمامات والفنادق .

مآثر الناصر

وتمنت على الناصر جاريته الزهراء ان يبني لها قصراً فبنى قصر الزهراء على اسمها وجعله على ثمانية اميال من العاصمة وقضى في اعداده خمساً وعشرين سنة واستدعى للعمل فيه مهرة البنائين من بغداد والقسطنطينية ففاق على قصر الرصافة الذي ورثه عن آبائه ثم انشأ الجنائن والبساتين في قرطبة وضواحيها ونسقها وزينها وبنى بركاً وبحيرات اجرى فيها المياه العذبة المجلوبة من الجبال باقنية الرصاص فاصبحت العاصمة بزهرائها ورصافتها جنة للناظرين . وزاد دخل الخزينة في زمنه فبلغ نحو ستة ملايين دينار في العام فكان ينفق ثلثه في النفقات العامة وثلثه على الابنية التي يستحدثها ويبقي ثلثه احتياطاً . وانشأ اسطولاً ثبّت له السطوة على العدوتين وجيشاً ضمن له السيطرة على اكثر الاندلس وعقد المحالفات مع من والاه من ملوك اسبانيا وغيرها واسس المدارس المجانية وشجع العلماء والادباء بحيث حق لقرطبة ان تدعى مدينة العلم والادب كما هي مدينة الفنّ والجمال .

ومات عبد الرحمن بعد ملك دام نحو خمسين سنة مكّن فيها لبيته السلطة وآمن فيها للعاصمة وللجزيرة حياة الترف والرخاء وهيأ لابنه الحكم مملكة غنية عظيمة الاتساع[١].

الحكم ابن عبد الرحمن

وورث الحكم ملكاً لم يرث ربما مثله وارث وتمّت البيعة له بحفل لا اظن التاريخ عرف نظيره حتى زمنه ويكاد وصف المقّري لحفلات المبايعة وللمراسيم التي اجريت عند استقبال الملوك بقصره يفوق جميع ما نقل عن حفلات التتويج للملوك المعاصرين[٢]. وكان الحكم ميالاً الى العلوم والآداب كما سنرى فانصرف اليها واصبح مأمون الاندلس وكان عصره عصر الاندلسي الذهبي من حيث النهضة الادبية .

الحاجب المنصور

وكان في خاصة الحكم شاب نبيه اسمه محمد ابن ابي عامر اسند اليه الحكم امر الاشراف على ولده فتمكن بدهائه من كسب عطف الملكة صبح امرأة الحكم الاسبانية الاصل واصبح قائداً للجيش ثم خازناً لبيت المال ووزيراً وحاجباً . واستطاع بعد موت الحكم ان يتخلص بدهاء من منافسيه واحداً واحداً ، فكان يظاهر هذا على ذاك حتى يقضي عليه ثم يؤلب آخر على هذا حتى يفتك به وتنكر آخر الامر الى صبح نفسها والى ابنائها واستلم زمام الامور بيده مستقلاً به واصبح ملكاً على الاندلس ولقب نفسه بالمنصور وقام بنحو عشرين غزوة استردّ بها ما كان فقده الحكم في اواخر عهده حين انصرف بكليته الى الآداب والعلوم واعاد الى الملك سطوته ومجده ويلقبه المستشرقون ببسمارك القرن العاشر لدهائه وحنكته . وبموته وموت ابنه وعودة السلطة الى ابناء البيت المرواني طرأ على الدولة الفساد وسادت الفوضى مرة ثانية واضطرب الامن وانتهى الدور الاول في الثلث الاول من القرن الحادي عشر بعد ثلاثمائة سنة ونيف من عام الفتح .

---

(١) راجع وصف قرطبة ومجد الناصر في كتاب نفح الطيب من غصن الاندلس الرطيب للمقري — دار الطباعة الميرية ، مصر ١٢٧٩ الجزء الاول صفحة ١١٧ و ١٦٦ — ١٧٨

(٢) المقري ١ : ١٨٢ — ١٨٦

وتجزأت المملكة الى امارات يحكمها ملوك وامراء مستقلون عرفوا بملوك الطوائف كان منهم ملوك عرب وآخرون بربر وآخرون اسبان مستعربون واصبحت المدن المهمة عواصم لهذه الدويلات الصغيرة ، فملك في قرطبة وآخر في اشبيلية وثالث في بلنسية ورابع في غرناطة او قرمونة او طليطلة وهلم جرّا . وعرف من هذه الاسر بنو جوهر وبنو الافطس وبنو هود وبنو برزال وبنو عباد وآخرون وتنافس هؤلاء الملوك فيما بينهم في ابتناء الحصون والقلاع والقصور والمنى[1] وفي مجالس الادب والطرب وتشجيع الشعراء وكان من هؤلاء الملوك من خطب للخلفاء المروانيين وان لم يبق لهم خلافة ومنهم من خطب للعباسيين على بعد الدار ومنهم من تلقب بنعوت الخلفاء كبني العبّاد فكان منهم المعتضد والمعتمد ولاجل توثبهم على النعوت العباسية قال ابو بكر ابن عمار الاندلسي يهجوهم .

ممّا يزهدني في ارض اندلس — اسماء معتضد فيها ومعتمد
القاب مملكة في غير موضعها — كالهر يحكي انتفاخا صولة الاسد[2]

غير انه انصافاً لهؤلاء الملوك يجب ان نذكر انهم رعوا حركة الادب كما فعل الحمدانيون في حلب وكان من الملوك انفسهم ادباء وشعراء وكانت اكثر عواصمهم اسواقاً للادب وكان اكثرهم يدعو الى بلاطه العلماء والشعراء يحاضرهم ويجالسهم ويحب ان يشهر عنه ذاك . ودام امر الطوائف نحو ستين سنة استطاع في اواخرها ملوك الاسبان من جمع كلمتهم فهاجموا هذه الدويلات واحدةً واحدة وقضوا عليها حتى بلغوا اشبيلية عاصمة بني العباد فضايقوا المعتمد حتى اضطر الى ان يطلب النجدة من امير المرابطين في العدوة الافريقية .

دولة المرابطين (١٠٩١–١١٤٧)

فاتى ابن تاشفين زعيم المرابطين الى نجدة المعتمد في كتائب بربرية من قبائل

(١) مفردها مُنية وكانت تطلق هذه اللفظة على ما يعرف اليوم بالفلا (Villa) عند الافرنج وهو قصر يحيط به روض او جنينة . انظر المقري ١ : ٢٢٠

(٢) المقري ٢ : ١١٢٥

زناتة ومصمودة وقهر الافرنج في واقعة الزلاقة الشهيرة سنة ١٠٨٦ وثبّت للمعتمد سلطته وعاد الى افريقية وما كادت تنقضي ثلاث سنوات حتى عاود الافرنج الكرّة وطلب المعتمد النجدة مرة ثانية فعاد ابن تاشفين وقضى على المناوئين وهنا طابت لابن تاشفين الاندلس ورياضها الغناء وقصورها ومناها وموارها الضافية فاستخلص الملك لنفسه ، والملك لمن غلب ، ذلك انه انتحل الخصومة مع المعتمد واخذه أسيراً الى افريقية الى أغمات حيث قضى غماً وحزناً في منفاه وملك ابن تاشفين الاندلس ودام حكم المرابطين فيها نحو ستين سنة اديل منهم بعدها الى الموحدين .

دولة الموحدين (١١٤٧–١٢٦٩)

والموحدون طائفة أخرى من افريقية من اصحاب ابن تومرت الذي اراد ان يضع للدين عهداً جديداً فدعا نفسه بالموحّد وجمع حوله الانصار واعلنت شيعته بعد ذلك الجهاد على المرابطين فغلبوهم في افريقية ثم نقلوا الحرب الى الاندلس وغلبوهم ايضاً فيها وكان الموحدون اكثر ميلاً من المرابطين الى تشجيع العلوم والاداب واكثر تمسكاً بامور الدين ودام ملكهم نحو مئة وثلاثين سنة استطاع بعدها ملوك النصارى في الاندلس قهرهم واخراجهم من الجزيرة والاستيلاء على اكثر اماراتها .

بنو الأحمر (١٤٢٩–١٤٩٢)

واستطاع احد الامراء من بني الاحمر ان يستخلص مقاطعة غرناطة لنفسه وتمكن ابناؤه بعده ان يقفوا بوجه تيار التوسع الافرنجي مدة طالت نحو قرنين ونصف عرفت فيها غرناطة ازهى عصورها وفيها شيدت قصور الحمراء التي لا تزال ماثلة حتى اليوم . وفي سنة ١٤٩٢ اي بعد نحو ثمانية قرون من عام الفتح هاجم بني الاحمر فرديناند وايزابيلا فسقطت غرناطة آخر معقل للفاتحين وسلم ابو عبدالله آخر ملوكها مفاتيح الحمراء الى الغالبين .

وصار ما كان من ملك ومن ملك كما حكى عن خيال الطيف وسنان

وتميّزت كل من هذه الادوار بميزات خاصة فكان الدور الاول وهو اطولها دور السيادة العربية به نزح الى الجزيرة اكثر من نزح من العرب لاسيما اهل الشام – سورية فقد كثروا بحيث لم تحملهم عاصمة الملك قرطبة ففرّقوا في المدن الاخرى كأشبيلية وغرناطة وجيّان ومالقة وسمّوا اكثر المدن التي حلوها باسماء المدن الشامية التي تركوها . واتسم هذا الدور بالانشاء والعمران ووضع فيه اساس النهضة الادبية والغناء وظهر في آخره فن الموشحات . وتميز الدور الثاني دورملوك الطوائف بنضوج الحركة الادبية وكثرة الشعراء والشواعر وشيوع فنّ الموشحات. وتميز دور المرابطين بسيطرة العنصر البربري وضعف الحركة الادبية وظهور الشعر الشعبي – الزجل – الذي نما فيما يظهر على حساب الشعر الكلاسيكي . وتميز دور الموحدين بالحماسة الدينية ونموّ الحركة الفلسفية المنبثقة عن الدين. وتميز دور بني الاحمر والجلاء في انه الدور الذي نضجت به بعض هذه الفنون التي استحدثت في الاندلس من موشحات وازجال ساعدت تقاسيمها على ان تلحن وتشيع بواسطة الغناء في الناس واتصلت بحياة العامة من سكان الجزيرة الاصليين بحيث كانت عاملاً على ظهور فنّ شعري غنائي جديد عند التروبادور (Troubadours) ومنهم انتشر في اوربة الغربية وتميز ايضاً في انه شهد اعظم محنة نالت الفاتحين ومدنيتهم على ايدي ملوك الافرنج وزعمائهم الدينيين من الوان الاضطهاد الديني والتعذيب والقسوة التي لم تنته حتى تمّ الجلاء الاخير سنة ١٦٠٩ وتميز ايضاً في دواوين التفتيش التي انشأها الفرنجة لمحو كل اثر للاسلام او العرب والبحث عن الكتب العربية لحرقها او اتلافها كل هذا مقابل اللين والتساهل اللذين ابداهما الفاتحون للنصارى واليهود في الاندلس والتشجيع لنقل العلوم الاجنبية الى اللغة العربية في جميع الامصار التي فتحها العرب.

وشهدت هذه الجزيرة طيلة هذه الادوار المختلفة من المعارك كراً وفراً ، فتحاً واستردادا ومن القتلى والأسرى والوان المحن واللهو والاضطهاد والتساهل ما لم تشهده بقعة ما من جميع البقاع التي دخلها العرب في فتوحاتهم المختلفة . وجرى في هذه الجزيرة من الاختلاط بين الاجناس البشرية والاقوام المختلفة بواسطة الزواج والتسرّي ما لم يجر مثله في أي اقليم آخر فتحه العرب : فقد تحدّر اليها من العرب طوائف كثيرة من مختلف القبائل والاقاليم وكان مع البعض مواليهم من مختلف

الجنسيّات في الشرق ونزل مع العرب ايضاً طوائف أخرى من البربر والسودان وامتزجوا جميعاً بسكان الجزيرة وما يجاورها من قوط وأسبان وصقالبة وغيرهم من شعوب الفرنجة . وكان الفرنج يتحدرون احياناً من مقاطعاتهم فيهاجمون المناطق التي يحتلها الفاتحون ويسبون من نساء العرب ويتسرّون بهن كما فعل العرب والبربر ايام الفتح بحيث نشأ من هذا الامتزاج اجيال مهجنة مولدة جديدة لم ينشأ مثلها قط في قطر آخر .

هذه لمحة كان لا بدّ منها لفهم الأدب الذي صدر في هـذه الادوار المختلفة وقد آن لنا ان نعرض للأدب نفسه .

أول أثر ادبي

ولنعد حيث بدأنا فالرواة ينسبون الى طارق ابن زياد اول أثر ادبي عرفته ارض الاندلس هو خطبته الشهيرة التي مطلعها ايهـا الناس اين المفرّ البحر من ورائـكم والعـدوّ امامكم وليس لكم والله الا الصدق والصبر . وكنت أودّ لو كان يسمح الوقت بمناقشة هذا الزعم بشيء من الاسهاب فالأدلة على اضطراب هذه الرواية كثيرة وما كان طبيعياً لطارق البربري – على استعرابه – ان يخطب في جنده البربر بمثل هذا البيان العربي ويكفي ان تعلموا ان خبر احراق المراكب لم يثبت تاريخياً وان الحملة لم تنتقل من العدوة دفعة واحدة وان مدداً وصل بعد وصول الحملة الاولى وان مطلع الخطبة نفسه – ايها الناس اين المفرّ البحر من ورائكم الخ. قد نسب ايضاً الى ابرهة الاشرم الحبشي حين عبر البحر الاحمر لاحتلال اليمن .

وليس ما يمنع ان يكون في رجال الحمـلات الاولى من قرض شعراً او كتب نثراً ولكنه لم يصلنا من آثارهم شيء جدير بالانتباه .

ومن محاسن الصدف ان يكون عبدالرحمن الداخل الذي وطّـد الملك لبني مروان في الاندلس هو نفسه صاحب اول اثر ادبي فالمقّـري يذكر له خطباً ورسائل لا تختلف في اسلوبها عن الخطب والرسائل التى الفناها آخر العصر الاموي في المشرق ويذكر له فوق ذلك شعراً اذكر منه ما بعث به الى اخت له تخلفت بالشام يصف فيه شوقه اليها وحنينه الى البلد الذي غادره مرغماً :

ايها الراكب الميمم ارضي   اقرِ من بعضي السلام لبعضي
إن جسمي كما علمت بارض   وفؤادي ومالكيه بارضِ
قـدّر البين بيننا فافترقنا   وطوى البين عن جفوني غمضي
وقضى الله بالفراق علينـا   فعسى باجتماعنا سوف يقضي(١)

ولعبد الرحمن اشعار اخرى لا تختلف من حيث الاسلوب والقوة عن هـذه الابيات التي ذكرنا وكان ابن عمه الامير عبدالملك الذي المحنا اليه سابقاً يقرض الشعر ايضاً وقد رووا له ابياتاً قالها في نخلة فريدة رآها في حديقة بأشبيلية فذكرته بغربته ووطنه الاصلي :

يا نخل انت فريدة مثلي   في الارض نائية عن الاهل
تبكي وهل تبكي مكممة   عجماء لم تجبل عـلى جبلي
ولو انها عقلت اذن لبكت   ماءَ الفرات ومنبت النخل
لكنها حرمت واخرجني   بغضي بني العباس عن اهلي(٢)

وتلاحظون الرقة والجزالة في هذا الشعر كأنما قصد فيه ان يكون السنّة للشعر الاندلسي في جميع اطواره . (وكان عبدالرحمن الداخل اول من شجع على رحلة الغناء الى الاندلس(٣)

وازداد النشاط الادبي زمن عبدالرحمن الداخل ومن عقبه من الامراء الامويين واصبحت قرطبة مركز الحركة الادبية والعلمية في الاندلس واخذ الكثيرون يفدون اليها من المشرق بحيث صارت اليها الرحلة في رواية الشعر وكانت تتطلع في نهضتها الى بغداد وعلمائها وشعرائها وكان المشرق قبلة الاندلس الادبية فلا تكاد تعرف الكتب في المشرق او توضع حتى تطلب الى المغرب وتعم وكان للاندلسيين ولع خاص بتآليف ابن قتيبة بحيث كانوا يتهمون من لم يكن بيته من تآليف هـذا

---

(١) المقري ٢ : ٧٠٧ و٧١٦

(٢) المقري ٢ : ٧١٨ والابيات تنسب لعبدالرحمن ايضاً لأن له شعراً يماثلها في نخلة فريدة في حديقة قصره بالرصافة وليس غريباً ان تكون هذه الاشعار في نخلة واحدة او قيلت في مجلس واحد ثم تصرف الرواة بأخبارها فنسب بعضهم الابيات لعبدالملك في نخلة بأشبيلية وزعم آخرون انها لعبدالرحمن في نخلة بقرطبة

(٣) المقري ٢ : ٧٥٨

الاديب شيء واخذ الاندلسيون يرتحلون الى المشرق في طلب العلم والرواية ويتصلون بأدباء المشرق وشعرائهم ويأخذون عنهم ثم يعودون فينشرون هذا العلم او الادب في الاندلس، وهكذا كان الادب حتى اواخر الدور الاموي وافداً على الاندلس يتذوقه الاندلسيون ويستسيغونه ويقلدونه وكانت خطبهم ورسائلهم لا تختلف كثيراً عن خطب المشرق ورسائله اواخر العصر الاموي وصدر العصر العباسي : ولم يكن هناك جدة في اشعارهم ولا ابتكار الا ما تقتضيه طبيعة اقليمهم من وصف للرياض والبساتين والمنشئات التي استحدثها ملوكهم فكان شعراء الخمرة يقلدون الوليد ابن يزيد وابا نواس ومدرستهما وشعراء الوصف البحتري وشعراء الغزل المسلم ابن الوليد وهلمّ جرّا .

يحيي ابن الحكم

وكان من هؤلاء الشعراء من برع في التقليد بحيث كاد يجوز تقليده على المشارقة انفسهم فقد زعموا انه كان في خاصة عبد الرحمن الثاني شاعر رقيق اسمه يحيي ابن الحكم كان يعهد اليه عبد الرحمن بالمهام الدبلوماسية لحذقه وادبه فينتدبه سفيراً لدى ملوك الافرنج وكان يلفت الانظار بلباقته وكياسته وجماله وقد شبّب مرّة بملكة النورمان في حضرتها وترجموا شعره لها فنال اعجابها[1] وغضب عليه الخليفة مرة فنفاه الى المشرق فوفد الى بغداد وذلك بعد موت ابي نواس بمدة يسيرة فوجد الناس يلهجون بذكره ولا يساوون شعر أحد بشعره فتركهم حتى وقعوا في ذكر ابي نواس فاثنى عليه ثم قال لهم من يحفظ منكم قوله :

ولما رأيت الشرب اكدت سماؤهم تابطت زقي واحتسبت عنائي
ولما اتيت الحان ناديت ربه فثاب خفيف الروح نحو ندائي
قليل هجوع العين الا تعلّة على وجل مني ومن نظرائي
فقلت اذقنيها فلما اذاقها طرحت عليها ريطتي وردائي
وقلت اعرني بذلة استتر بها بذلت له فيها طلاق نسائي
فوالله ما برّت يميني ولا وفت له غير اني ضامن بوفائي
وابت الى صحبي ولم اك آبياً وكل يفديني وحق فدائي

(١) المقري ١ : ٤٥١

فاعجبوا بالشعر وافرطوا في الثناء على ابي نواس فقال لهم خففوا عليكم فان هذا الشعر لي وانشدهم قصيدته كلها ومطلعها :

تداركت في شرب النبيذ خطائي   وفارقت فيه شيمتي وحيائي

فخجلوا وافترقوا عنه[1]

زرياب المغني

وقد ظهر في هذه الحقبة في بغداد مغنّ ناشىء هو زرياب وكان قد اخذ الغناء عن اسحاق الموصلي حتى اذا برع فيه رأى اسحاق ان يسمع الرشيد غناءه فسمعه واعجب به واوصى ان يعتنى بشأنه فلحقت اسحاق غيرة منه وخاف من منافسته وخشى على مكانته فاوعز اليه ان يترك العراق فطلب المغرب وصادف وصوله اول امارة عبد الرحمن الثاني سنة ٨٢٢ وسمع هذا بقدومه فارسل من تلقاه بموكب فخم وانزله في قصر من احسن القصور وحمل اليه جميع ما يحتاج اليه وقدّمه على جميع المغنين واحـلّه من دولته وندمائه بمكان[2]

النهضة الغنائية

لقد احدث قدوم زرياب نهضة غنائية في الاندلس دامت طويلاً وكان لها اثرها الكبير في الشعر الاندلسي وفي اختراع الموشحات والزجـل . وزرياب هو الذي زاد في الاندلس على اوتار العود وتراً خامساً وكانت اربعة قبل عهده وهو الذي اخترع مضراب العود من قوادم النسر وهو الذي سنّ لاهـــل الاندلس سنناً في آداب الاجتماع اخذت عنه ونسبت اليه فقد روي عنه انه علم الاندلسيين طريقة جديدة لتصفيف الشعر وترتيبه شاعت عنه وعرفهم الى الوان جديدة من الطعام

---

(١) المقري ١ : ٤٥٥

(٢) راجع اخبار زرياب في المقري ٢ : ٧٤٩ — ٧٥٤ وانظر مقدمة ابن خلدون طبعة المكتبة التجارية المصوّرة عن طبعة المطبعة الادبية ببيروت ص ٤٢٨ ففيها ان الذي تلقاه هو الحكم والد عبد الرحمن وهو اقرب الى الصواب لان الرشيد توفي سنة ٨٠٩ الا اذا سلمنا مع المقري في ان زرياب قضى هذه المدة الطويلة بين وفاة الرشيد وامارة عبد الرحمن — في الجزيرة الخضراء ·

كالمليون وفنون في ترتيب المائدة والآنية وارشدهم الى اتخاذ آنية الزجاج الرفيع بدلاً من آنية الذهب والفضة ونقل اليهم ازياء من اللباس وغير ذلك .

وكان لزرياب ابناء وجوار وفدوا معه وحفظوا صناعته ودرب طـــائفة من الجواري نقلن غناءه الى اكثر بقاع الاندلس وكان لهذه النهضة الغنائية الموسيقية فيما بعـد اثر في موسيقى الغرب ايضاً وفي شعره الغنائي . وارتقى علم الموسيقى بعد زرياب عند ظهور ابي بكر ابن باجة الغرناطي فارابي الاندلس مؤلف الالحان التي اصبح عليها الاعتماد في الغناء وقد جمع يحيى الخدج المرسي في اوائل القرن السابع كتاباً في الاغاني الاندلسية على طريقة كتاب الاغاني لابي الفرج الاصبهاني(١).

الاتصال الادبي

واشتدت الصلة في هذا العصر بين العرب وسكان البلاد الاصليين وكثر الاختلاط واقبل الاسبانيون على حضارة العرب يغترفون منها وعكفوا على اللغة العربية يدرسونها لاسيما بقرطبة عاصمة الملك وقد هال اسقفهـا الفارو (Alvaro) هذا الامر فكتب يشكو ان ابناء طائفته يقرأون اشعار العرب وادبهم ويدرسون آثار الفقهاء والمفكرين المسلمين لا للرد عليها ودحضها بل لكي يتقنوا اللغة العربية ويحسنوا التعبير بها ثم يبدي دهشته من انه لا يجـــد بين جماعته من يقرأ الشروح اللاتينية على الكتب المقدسة او يدرس الاناجيل والانبياء والرسل بينما يرى الشبان يقبلون على الكتب العربية يقرأونها بحماسة وشوق وينفقون اموالهم في سبيـــل اقتنائها ويتباهون في ذلـــك . بل انه غالى فزعم انه لا يجد بين الالوف من ابناء رعيته من يستطيع ان يكتب رسالة باللاتينية المقبولة بينما يتقن الكثيرون العربية وينظمون الاشعار فيها بمهارة لا تقاربها مهارة العرب انفسهم(٢).

ومهما يكن من امر فالظاهر ان التساهل الذي ابداه العرب والرونق الذي كان لحضارتهم قد مهدا السبيل لهذا الاتصال الادبي فاقبل الاندلسيون على التعلق

---

(١) المقري ٢ : ٧٧٨

(٢) ص ٢٦٨ Dozy, Spanish Islam, London 1903 وانظر ايضاً :
Nicholson, A Literary History of the Arabs, London, 1923, ص ٤١٥

بحضارة العرب الفاتحين وتعلم لغتهم بحيث كان بين الادباء في العصور الاندلسية الاخيرة طائفة كبيرة من هذه الطبقة المستعربة .

وفي مدة حكم عبد الرحمن الناصر وابنه الحكم والحاجب المنصور بلغ الادب العربي في الاندلس مكانته العليا واخذ يستقل عن المشرق شيئاً ما واخذ الادباء يشعرون بشيء من النزعة الاقليمية رغم تعلقهم بادب المشارقة .

بعض ادباء هذه الحقبة

واهمهم ابن عبد ربه فهو يضع كتاباً جامعاً لشتى ابواب علوم العرب ويسميه العقد وهو المعروف اليوم بالعقد الفريد ينافس به المشارقة بفن التأليف الادبي فيقول في مقدمته . وقد نظرت في بعض الكتب الموضوعة فوجدتها غير متفرقة في فنون الاخبار ولا جامعة لجمل الآثار فجعلت هذا الكتاب كافياً جامعاً لاكثر المعاني.... وقرنت بها غرائب من شعري ليعلم الناظر في كتابنا هذا ان لمغربنا على قاصيته حظاً من المنظوم والمنثور[1] انتهى . وقد عارض ابن عبد ربه بعض شعراء المشرق ومن شعره هذا معارضته لقصيدة مسلم ابن الوليد صريع الغواني التي يقول فيها :

ادبرا عليّ الراح لا تشربا قبلي ... ولا تطلبا من عند قاتلتي ذَحلي
فيا حزني اني اموت صبابةً ... ولكن على من لا يحلّ له قتلي
فديت التي صدّت وقالت لتربها ... دعيه الثريا منه اقرب من وصلي

فقال ابن عبد ربه على رويّه :

أتقتلني ظلماً وتجحدني قتلي ... وقد قام من عينيك لي شاهدا عدلِ
اطلاب ذحلي ليس بي غير شادن ... بعينيه سحر فاطلبوا عنده ذَحلي
اغار علـى قلبي فلما اتيته ... اطالبه فيه ، اغار علـى عقلي
اذا جئتها صدّت حياءً بوجهها ... فيعجبني هجرٌ الذّ من الوصلِ
وان حكمت جارت علي بحكمها ... ولكنّ ذاك الجور اشهى من العدلِ
كتمت الهوى جهدي فجرّده الاسى ... بماء البكا : هـذا يخطّ وذا يملي

(۱) انظر كتاب ابن عبد ربه وعقده لجبرائيل جبور المطبعة الكاثوليكية بيروت ۱۹۳۳ ص۳٦

واحببت فيها العذل حباً لذكرها … فلا شيء اشهى في فؤادي من العذل
اقول لقلبي كلما ضامه الاسى : … اذا ما ابيت العزّ فاصبر على الذل
برايك لا رايي تعرضت للهوى … وامرك لا امري وفعلك لا فعلي
وجدت الهوى نصلاً من الموت مغمداً … فجرّدته ثم اتكيت على النصل
فان تكُ مقتولاً على غير ريبة … فانت الذي عرّضت نفسك للقتل[1]

وابن عبد ربه من شعراء آخر هذا الدور المعدودين وله شعر في رثاء ابنٍ له لا يقل روعة عن شعر ابن الرومي بابنه[2] وقد ذاع صيت ابن عبد ربه بالمشرق فطلب الصاحب ابن عباد عقده وكان يتشوق ان يرى فيه اخبار اهل المغرب فلم يجد شيئاً يروي غليله[3] وسمع المتنبي بشعر ابن عبد ربه فاستنشد بعض الوافدين من الاندلس على المشرق شيئاً من هذا الشعر فانشده ، قالوا : فصفق المتنبي بيديه وقال : يا ابن عبد ربه لقد يأتيك العراق حبواً .[4]

والمهم فوق هذا في امر ابن عبد ربه ان ابن بسام مؤلف الذخيرة في محاسن اهل الجزيرة والصلاح الكتبي مؤلف فوات الوفيات وابن خلدون المشهور ينسبون اليه في رواية يتناقلونها انه اوّل من سبق الى نظم الموشّحات[5] وليس هنا مجال مناقشة هذه الرواية فالظاهر ان فن الموشّح قد تأخر عن زمن ابن عبد ربه قليلاً او لم يكن على الاقل لابن عبد ربه صاحب العقد اثر فيه وسنعود الى هذا الامر بعد حين .

الامير سعيد الجودي

وكان من شعراء هذه الحقبة الامير سعيد الجودي الفارس الجواد الذي دافع عن ملك بني مروان في معارك كثيرة خاضها وغلب ثم ساد وعزّ بحيث كاد يطاول بني مروان انفسهم في هذا الملك وقد كان مستهتراً بالنساء واللهو وهام بجارية مغنية

---

(١) العقد الفريد لابن عبد ربه المطبعة الاميرية مصر ١٢٩٣ ج ٣ : ١٧٥

(٢) ابن عبد ربه وعقده لجبرائيل جبور ١٤٤ — ١٤٥

(٣) معجم الادباء لياقوت الحموي مصر ١٩٢٤ ج ٢ : ٦٧

(٤) المقري ٤ : ٦٢٩

(٥) مقدمة ابن خلدون ص ٥٨٤

اسمها جيحان وله فيها اشعار كثيرة لا تختلف كثيراً عن شعر الحب الذي ألفه المشارقة وتغلب فيه الرقة والسلاسة . منه هذه المقطوعة الصغيرة وقد ذكروا انه قالها حينما سمعها تغني في قصر الامير عبدالله ولم يرها :

سمعي أبى أن يكون الروح في بدني　　فاعتاض قلبيَ منه لوعة الحزن
اعطيت جيحان روحي عن تذكرها　　هـذا ولم أرها يوماً ولم ترني
فقـــل لجيحان يا سؤلي ويا أملي　　استوصي خيراً بروح زال عن بدن
كانني واسمها والدمع منسكب　　من مقلتي راهبٌ صلى الى وثن[1]

ابن هاني

ومنهم ابن هـاني الذي نشأ بأشبيلية ثم نفي الى افريقية فالتحق بالمعز ومدحه فجعله شاعره وبالغ في الانعام عليه ثم سار المعز لفتح مصر ففتحها واراد ابن هـاني اللحاق به فمات في برقة في طريقه اليه وتأسف المعز عليه وقال فيه : هـذا الرجل كنا نرجو أن نفاخر به شعراء المشرق فلم يقدّر لنا ذلك[2] وقد قال فيه ابن خلكان انه عند المغاربة كالمتنبي عند المشارقة وليس في المغاربة من هو في طبقته لا من متقدميهم ولا من متأخريهم بل هو اشعرهم عـــلى الاطلاق وهو صاحب القصيدة المشهورة :

تقول بنو العباس هل فتحت مصر　　فقل لبني العباس قد قضي الأمرُ
وقـد جاوز الاسكندرية جوهر　　تطالعه البشرى ويقـدمه النصرُ

وله نونيّة في المعزّ منها في وصف الخيل وكرم المعز قوله :

وصواهل لا الهضب يوم مغارها　　هضب ولا البيد الحزون حزون
عرفت بساعة سبقهـا لا انهـــا　　علقت بها يوم الرهان عيون
واجلّ عـلم البرق فيها انهـــا　　مرّت بجانحتيه وهي ظنون
في الغيث شبه من نداك كانما　　مسحت عـلى الأنواء منك يمين

---

(١) المقتبس في تاريخ رجال الاندلس لابن حيان، باريس ١٩٣٧ ص: ٢٩ و٥٨ و٥٩ و١٢٣
(٢) وفيات الاعيان لابن خلكان ، مصر ١٣١٠ ج ٢ : ٥

ومن الممتع أن نلاحظ ان المعري كان اذا سمع شعر ابن هاني يقول ما اشبّهه الا برحى تطحن قروناً لأجل القعقعة التي في الفاظه . غير ان ابن خلكان يرى أن تعصب المعري للمتنبي هو الذي دفعه الى هذا القول[1].

احمد ابن درّاج القسطلي

وقدعرف في هذه الحقبة الشاعر احمد ابن درّاج القسطلي وقد شارك ابن هاني في لقب متنبي المغرب ولابن درّاج رسائل وفصولٌ في النثر لا تختلف كثيراً عن الرسائل والفصول التي وضعت في العصر العباسي وله شعر ابلغ من نثره وقد اجرى الثعالبي ذكره في يتيمته وهو صاحب الدالية المشهورة في سليمان ابن الحكم :

شهدت لك الايام انك عيدها   لك حنَّ موحشها وآب بعيدُها

والنونية التي مطلعها :

هنيئاً لهذا الملك روح وريحانُ   وللدين والدنيا امانٌ وايمانُ

وله رائية في المنصور ابن ابي عامر ينسج فيها على منوال ابي تمام في حبّ المغامرة واقتحام الأهوال يصف فيها وداعه لصاحبته ويذكر ابنه الصغير الذي خلفه وراءه بابيات لا تقلّ روعة عن شعر ابي تمام :

ولما تدانت للوداع وقد هفا   بصبري منها انة وزفيرُ
تناشدني عهد المودّة والهوى   وفي المهد مبغومُ النداء صغير
عييّ بمرجوع الخطاب ولفظه   بموقع اهواء النفوس خبيرُ
تبوأ ممنوع القلوب ومهدّت   له اذرع محفوفة ونحورُ
عصيت شفيع النفس فيه وقادني   رواح بتدآب السرى وبكور
وطار جناح البين بي وهفت بها   جوانح من ذعر الفراق تطير[2]

---

(١) وفيات الاعيان لابن خلكان ، مصر ١٣١٠ ج ٢ : ٥

(٢) راجع نبذاً من نثره وشعره في الذخيرة في محاسن اهل الجزيرة لابن بسام مصر ١٩٣٩ القسم الاول المجلد الاول ص ٤٣ — ٧٨ والابيات المذكورة هي في ص ٦٥

وعُرف الشاعر الرمادي والنحوي المؤرخ ابن القوطية وقدكان يقرض الشعر[1] وابن شهيد الكاتب الشاعر وله رسالة سماها بالتوابع والزوابع لا تبعد من حيث الخيال والاسلوب كثيراً عن رسالة الغفران للمعري جعل له فيها سميراً من الجنّ اسماه زهير ابن نمير سار معه الى ارض الجنّ وتنقّل به بين الادباء والشعراء القدماء ورواتهم فكان يطارحهم الشعر ويستمع الى اخبارهم وقد تفنن في عرض هذه الاخبار بصورة تدعو الى الاعجاب وهذه الرسالة جديرة بانتباه طلاب الادب اليوم[2].

اثر الحكم في هذه النهضة الادبية:

ويلاحظ ان الحكم في ميله للأدب وتشجيعه للحركة الادبية كان من العوامل التي ساعدت في نموّ هذه النهضة فقد كان محباً للعلوم جمّاعاً للكتب بحيث جمع ما لم يجمعه احد من الملوك قبله وقد روي عن بعض من كانوا على خزانة الكتب بداره ان عدد الفهارس التي فيها تسمية الكتب اربع واربعون فهرسة وفي كل واحدة عشرون ورقة ليس فيها الا ذكر اسماء الدواوين لا غير . وقد ذكر عن آخرين انها بلغت نحو اربع مئة الف مجلد اقاموا ستة اشهر في نقلها وقد آثر الحكم جمع الكتب على لذات الملوك فكان يبعث في شراء الكتب الى الاقطار رجالاً من التجار ويرسل اليهم الاموال لشرائها حتى جلب منها الى الاندلس ما لم يعهدوه وبعث في كتاب الاغاني الى ابي فرج الاصبهاني بالف دينار من الذهب العين فبعث اليه بنسخة من كتابه قبل ان يخرجه في العراق وجمع بداره الحذّاق في صناعة النسخ والمهرة في الضبط والمجيدين في التجليد فاوعى من ذلك كله واجتمعت بالاندلس في زمنه خزائن من الكتب لم تكن لاحد من قبله ولا من بعده واصبحت قرطبة اكثر بلاد الله كتباً واصبح أهلها شديدي الاعتناء باقتناء الكتب يتنافسون في ذلك ويتباهون وصار من مواضيع الشهرة ان يكون لدى الطامح مكتبة في بيته يتجمّل بها. روى المقري أن الحضرمي قال : « أقمت مرّةً بقرطبة ولازمت سوق كتبها اترقب فيه

(١) راجع يتيمة الدهر للثعالبي المطبعة الحنفية دمشق ١٣٠٢ ج ١ : ٤١١ — ٤١٢ :

(٢) راجع اخباره وشيئاً من نثره وشعره في الذخيرة القسم الاول المجلد الاول من ص ١٦١ — ٢٨٩

وقوع كتاب كان لي بطلبه اعتناء الى ان وقع وهو بخط فصيح وتفسير مليح ففرحت به اشدّ الفرح . فجعلت ازيد في ثمنه فيرجع الي المنادي بالزيادة عليّ الى ان بلغ فوق حدّه فقلت له يا هذا ارني من يزيد في هذا الكتاب حتى بلغه الى ما لا يساوي قال : فاراني شخصاً عليه لباس رياسة فدنوت منه وقلت له اعز الله سيدنا الفقيه ان كان لك غرض في هذا الكتاب تركته لك فقد بلغت به الزيادة بيننا فوق حدّه قال: فقال لي لست بفقيه ولا ادري ما فيه ولكني اقمت خزانة كتب واحتفلت فيها لاتجمّل بها بين اعيان البلد وبقي فيها موضع يسع هذا الكتاب فلما رايته حسن الخط جيد التجليد استحسنته ولم ابالِ بما ازيد فيه . »[1] ويظهر ان كتب الحكم ظلت في قرطبة الى ان بيع اكثرها في حصار البربر للمدينة ونهب ما بقي منها عند دخول البربر اليها واقتحامها عنوة[2]. وكان الحكم نفسه يجمع الشعراء في بلاطه ويساجلهم وله شعر فيه رقة وسلاسة اذكر على سبيل التمثيل بيتين منه في توديع صاحبة له :

عجبت وقد ودّعتها كيف لم امت ... وكيف انثنت بعد الوداع يدي معي
فيا مقلتي العبرا عليها اسكبي دماً ... ويا كبدي الحرّا عليها تقطعي[1]

ومع ان الحاجب المنصور اضطر في اواخر دولته ان يبيع بعض كتب الحكم فقد كان في حياته يشجّع الأدب وكان يستصحب معه في غزواته جماعات من الكتاب والشعراء .

(للبحث صلة)

الدكتور جبرائيل جبور
الدائرة العربية ، الجامعة الاميركية

---

(١) المقري ١ : ٢١٨
(٢) » ١ : ١٨٢

ولم تنته دولة الادب في انتهاء الدور الاول وظهور ملوك الطوائف وان تكن بلغت مجدها فقد كان هؤلاء الملوك يتنافسون كما ذكرنا في رعاية الادباء عامة والشعراء بنوع خاص . وكان اعظم مباهاتهم ان يقال العالم الفلاني عند الملك الفلاني والشاعر الفلاني مختص بالملك الفلاني (المقري ٢ : ٧٨٠) . وكان منهم من الف في الادب كالمظفر ابن الافطس فقد ذكروا له كتاباً في فنون الادب في نحو مئة مجلدة (المقري ٢ : ٧٨٢) وكان الشعر قد اخذ يتسرب الى دور الحريم في القصور واخذت النساء من بنات الملوك والامراء والجواري على اختلاف طبقاتهن يفقهن هذا اللون من الادب ويحسنّ نظمه .

ولعل بني العباد هم اولى ملوك هذا الدور بانتباهنا فقد كانوا هم انفسهم شعراء وكان بلاطهم منتدى الادب في عصرهم فهذا المعتضد يجعل يوماً من ايام الاسبوع — الاثنين — للشعراء يفدون به عليه فيطارحهم الشعر ويستمع اليهم ويسبق بينهم جوائز ويجيز السابق ويثير الخصومة الادبية بينهم فيشحذ هممهم للنظم . وجاء المعتمد فبزّ اباه فيهذا المضمار وكان بنو العباد يحبون أن يشهر عنهم هذا الميل والتشجيع للادب وقد ادى هذا الى ان اصبح بلاطهم مركز الحركة الادبية في الاندلس.

ومما يحكى عن المعتمد انه اول ما تعرف الى امرأته الرميكية الشهيرة كان عن طريق الادب فقد زعموا انه ركب في النهر ومعه ابن عمار وزيره و قد زردت الريح النهر فقال ابن عباد لابن عمار أجز :

صنع الريح من الماء زرد

فاطال ابن عمار الفكرة وكان على النهر غسالات فقالت امرأة منهن :

اي درع لقتال لو جمد

فتعجب ابن عباد ونظر اليها فاذا هي صورة حسنة ولم تكن ذات زوج فتزوج منها وولدت له اولاده الملوك النجباء وكان اكثرهم شعراء[1] .

(١) المقري ٢ : ١١٠٠ – ١١٠١

ولم تكن الرميكية فريدة في هذا فقد اورد المقري شعراً لطائفة كبيرة من الحرائر والجواري غيرها واكثرهن عرفن في هذا الدور نذكر منهن بثينة بنت المعتمد ومهجة القرطبية وحسَّانة التميمية وام الهناء ومريم بنت يعقوب الانصارية واسماء العامرية والعبَّادية جارية المعتضد ، وسعدونة بنت عصام الحميري وام العلاء بنت يوسف الحجازية وامة العزيز وام الكرام بنت الامير المعتصم ابن صمادح وكانت تنظم الموشحات وجاريته المنى ونزهون الغرناطيــة وحفصة بنت حمدون وحمدة بنت زياد المؤدب والولادة بنت المستكفي ولا يتسع المقام للتمثيل على اشعارهن جميعاً ولهذا فانا نكتفي بذكر شيء من شعر حمدة وولادة

حمــدة

اما حمدة فقد لقبت خنساء المغرب على ان شعرها ليس في الرثاء بل في الغزل ومنه :

ولما أبى الواشون الاّ افتراقنــا   وما لهم عندى وعندك مــن ثار
وشنوا على أسماعنا كلّ غارةٍ   وقلّ حماتي عند ذاك وانصاري
غزوتهم من مقلتيك وادمعي   ومن نفسي بالسيف والسيل والنار

والى حمدة ينسب الاندلسيون هــذه الابيات الجميلة المنسوبة في المشرق للشاعر المنازي :

وقانا لفحة الرمضاء وادٍ   سقــاه مضاعف الغيث العميم
حللنا دوحــه فحنا علينــا   حنُو المرضعات عــلى الفطيم
وارشفنا عــلى ظمأٍ زلالاً   الذّ من المدامــة للنديم
يصد الشمس انّى واجهتنــا   فيحجبهــا ويأذن للنسيم

يروع حصاه حاليـة العذارى فتلمس جانب العقـد النظيم

قال ابو جعفر الاندلسي الغرناطي نزيل حلب عن حمدة « وقـد تلبَّس بعضهم بشعارها وادّعى غير هذا من اشعارها فركبوا التعصب في جادة ادعائهم وهي ابيات لم يحلّها غير لسانها ولم يرقم برديها غير احسانها ولقـد رأيت المؤرخين من أهل بلادنا –وهي الاندلس– اثبتوها لها قبل ان يخرج المنازي من العدم الى الوجود ويتصف بلفظة الموجود . »[1]

ولاّدة

اما ولاّدة بنت المستكفي فاخبارها مع ابي الوليد ابن زيدون مشهورة يتناقلها الادباء وقد كانت في زمنها واحدة اقرانها يتهالك افراد الشعراء والكتاب عـلى حلاوة عشرتها . وكان مجلسها في قرطبة منتدىً لاحرار المصر[2] واذا صح ما روي عنها وعن غيرها من بنات الملوك والامراء من اخبار اللهو والعبث ومجالس الانس فان الحرية التي كانت تتمتع بها المرأة العربية تفوق ما الفه المشرق وقـد ذكر ابن بسام في ذخيرته ان ولاّدة على علوّ نصابها وكرم انسابها وطهارة اثوابها اطرّحت التحصيل واوجدت الى القول فيها السبيل بقلة مبالاتها ومجاهرتها بلذّاتها . كتبت فـيما زعموا على احد عاتقي ثوبها مطرّزاً بالذهب .

انا والله اصلح للمعـالي وامشي مشيتي واتيه تيها

وكتبت على الآخر :

وأمكن عاشقي من صحن خدّي واعطي قبلتي مـن يشتهيها

ثم قال هكذا وجدت الخبر وابرأ الى الله من عهدة ناقليه والى الادب من غلط

---

١) المقري ٢ : ١١٤٢ – ١١٤٣

(٢) انظر الذخيرة القسم الاول المجلد الاول ص ٣٧٦ – ٣٨٧ والمقري ٢ : ١٠٩٧ – ١١٠٠

النقل ان كان وقع فيه [1]

ولم تكن ولآدة فريدة في الحرية والجرأة في التعبير عن عواطف الحب او اللهو بل كان يشاركها في هذه الظاهرة كثيرات من حرائر ذلك العصر . وقد ذكر الرواة لحفصة بنت الحاج من اشراف غرناطة شعراً لا يقل مجاهرة عن شعر ولآدة قالت :

ثناني على تلك الثنايا لانني اقول على علم وانطق عن خبر
وانصفها لا اكذب الله انني رشفت بها ريقاً أرق من الخمر [2]

شعراء هذه الحقبة وادباؤها

ابن زيدون

واما شعراء هذه الحقبة وادباؤها فعددهم يكاد لا يحصر وقد ذكر منهم ابن بسَّام في الذخيرة ما يقارب المئتين مقتصراً على الامراء والوزراء والرؤساء ولعل اشهرهم ابن زويدن وقد انشأته دولة بني جهور وكان من ابناء وجوه الفقهاء بقرطبة في ايام الجماعة والفتنة فلما استقل بنو جهور في الحكم جعلوه لمهارته في الكتابة سفيراً بينهم وبين رؤساء الاندلس وكان ذكياً حاضر الجنان زعموا انه قام مرة على جنازة بعض حرمه والناس يعزونه على اختلاف طبقاتهم فما سُمع يجيب رجلاً منهم بما أجاب به آخر ٠ورسالته فى ابن عبدوس منافسه في حب ولادة اشهر من ان تعرف وقد شرحها غير واحد من ادباء المشارقة كالجمال ابن نباتة والصفدي وغيرهما وفيها من التلميحات والنوادر الطريفة شيء كثير ولعله اشهر شعراء الاندلس وقد لقب ببحتري المغرب لديباجة شعره ومن شعرة المشهور في ولادة وقد كانا في مجلس أنس ثم افترقا :

(١) الذخيرة القسم الاول المجلد الاول ص ٣٧٦
(٢) المقري ٢ : ١٠٧٩

ودع الصبر محب ودعك ... ذائع من سره ما استودعك
يقرع السن على ان لم يكن ... زاد في تلك الخطى اذ شيّعك
يا اخا البدر سناء وسناً ... حفظ الله زماناً أطلعك
ان يطل بعدك ليلي فلكم ... بت اشكو قصر الليل معك

ولعلّ اجمل قصائده النونية المعروفة وقد عارضها كثيرون من ادباء المغرب والمشرق ومنهم من ضمن اعجازها في الموشحات قال :

أضحى التنائي بديلًا من تدانينا ... وناب عن طيب لقيانا تجافينا
بنتم وبنّا فما ابتلت جوانحنا ... شوقاً اليكم ولا جفت مآقينا
تكاد حين تناجيكم ضمائرنا ... يقضي علينا الاسى لولا تأسينا
حالت لبينكم ايامنا فغدت ... سوداً وكانت بكم بيضاً ليالينا
اذ جانب العيش طلق من تألفنا ... ومورد اللهو صافٍ من تصافينا
لا تحسبوا نأيكم عنا يغيّرنا ... ان طال ، ما غير النأي المحبين
والله ما طلبت أهواؤنا بدلاً ... منكم ولا انصرفت عنكم أمانينا
ولا استعدنا خليلًا عنك يشغلنا ... ولا استفدنا حبيباً عنك يسلينا
يا ساري البرق غاد القصر فاسق به ... من كان صرف الهوى والود يسقينا
ويا نسيم الصبا بلغ تحيتنا ... من لو على البعد حيّاً كان يحيينا
يا روضة طالما اجنت لواحظنا ... ورداً جلاه الصبا غضاً ونسرينا
ويا حياةً تملينا بزهرتها ... مُنىً ضروباً ولذات افانينا
لسنا نسميك اجلالاً وتكرمة ... وقدرك المعتلى عن ذاك يغنينا
يا جنة الخلد أبدلنا بسلسلها ... والكوثرِ العذبِ زقوماً وغسلينا
كاننا لم نبت والوصل ثالثنا ... والسعدُ قد غض من اجفان واشينا
نأسى عليك اذا حُثَّت مُشعشعة ... فينا الشمول وغنانا مغنينا
لا اكؤس الراح تبدي من شمائلنا ... سيما ارتياح ولا الاوتار تلهينا
دومي على الوصل ما دمنا محافظة ... فالحرّ من دان انصافاً كما دينا

عليك مني سلام الله مـا بقيت صبابة منك تخفيهـا فتخفينا [1]

المعتمد ابن عبّاد

وكان المعتمد ابن عباد من الملوك الشعراء. وقد كان ابوه قبله اديبـاً واستطاع بكرمه وبأسه وأدبه ان يصبح اكبر ملوك الطوائف شأناً واكثرهم شهرة في عصره في المغرب والمشرق وهو زوج الرميكية التي اشرنا اليها سابقـاً وكان ان نكب آخر حياته بملكه ونفسه وابنائه ونفي الى اغمات في افريقية وسجن وقيّد بالقيود بعد مجده وعزّه في قصره الزاهي باشبيلية فاخذ يتسلّى عن حظه بنظم الاشعار في الشكوى من جور الزمان بعد ان كانت اشعاره تدور على اللهو ومجالس الانس وفي هذه الاشعار الاخيرة لون خاص من الادب ميّز شعر المعتمد فيه رقّة وفيه عاطفـة صادقة تشعر بالم صاحبها عند قراءة كل قصيدة منه هي اشعار عزيزٍ ذلّ ، منها قصيدته :

انباء اسرك قـد طبقن آفاقـا بل قد عممن جهات الارض اقلاقا
سرت من الغرب لا يطوى لها قدم حتى اتت شرقها تنعـاك اشواقا
فاحرق الفجـع اكباداً وافئـدة واغرق الدمع آماقـاً واحداقا
قلت الخطوب اذلتني طوارقهـا وكان غربي الى الاعـداء طرّاقا
متى رايت صروف الدهر تاركة اذا انبرت لذوي الاخطار ارماقا

وله التائية التي مطلعها :

انفض يديك من الدنيا وساكنها فالارض قد اقفرت والناس قد ماتوا

ومنها :

دروه ليثاً فخافوا منـه عاديةً عذرتهم فلعـدو الليث عادات
لو كان يفرج عنـه بعض آونـة قامت بدعوته حتى الجمـادات

وله لامية قالها حين مرّ به وهو في سجنه سربٌ من القطـا فغبطها على حريتها وحرية افراخهـا في مجاثمها بينما شتت ابناؤه وسبيت بناتـه وقضي عليه ان يكبل بالحديد :

---

1) الذخيرة القسم ١ المجلد ١ : ٣٠٩ — ٣١١ وانظر قلائد العقيان للفتح ابن خاقان باريس ١٢٧٧ ص ٩٢

بكيت على سرب القطا اذ مررن بي سوارح لا سجن يعوق ولا كبل
ولا تلك والله المعيد حسادة ولكن حنيناً ان شكلي لها شكل
فاسرح لا شملي صديع ولا الحشا وجيع ولا عيناي يبكيهما شكل
هنيئاً لها اذ لم يفرق جميعها ولا ذاق منها البعد عن أهلها أهل
واذ لم تبث مثلي تطير قلوبها اذا اهتز باب السجن او صلصل القفل
وما ذاك مما يعتريه وانما وصفت التي في جبلة الخلق من قبل
لنفسي ان القى الحمام تشوف سواي يحب العيش في ساقه كبل
الا عصم الله القطا في فراخها فان فراخي خانها الماء والظل

وقد كان لأسره وعذابه بسجن اغمات أثر في ذلك العصر حرك الشعراء ان يقولوا الشعر تألماً معه وحسرة عليه حتى اذا مات تفجر الشعر رثاء له من كل صوب وحدب فهذا الوزير ابن عبدون يقول فيه رائيته الشهيرة التي مطلعها:

الدهر يفجع بعد العين بالاثر فما البكاء على الاشباح والصور

وهذا شاعره ابو بحر ابن عبد الصمد يقول على قبره بعد ان طاف به وخر على ترابه ولثمه:

ملك الملوك اسامع فانادي أم قد عدتك عن السماع عوادي
لما خلت منك القصور فلم تكن فيها كما قد كنت في الاعياد
قبلت من هذا الثرى لك خاضعاً وتخذت قبرك موضع الانشاد

وهذا ابن اللبانة يقول داليته الشهيرة:

تبكي السماء بمزن رائح غاد على البهاليل من ابناء عبّاد
على الجبال التي هدت قواعدها وكانت الارض منها ذات اوتاد
عريسة دخلتها النائبات على أساود لهم فيها وآساد
وكعبة كانت الآمال تخدمها فاليوم لا عاكف فيها ولا باد
ياضيف اقفر باب المكرمات فخذ في ضم رحلك واجمع فضلة الزاد

و يا مؤمل واديهم ليسكنه — خف القطين وجف الزرع بالوادي
وانت يا فارس الخيل التي جعلت — تختال في عدد منهم واعداد
ألق السلاح وخل المشرفي فقد — أصبحت في لهوات الضيغم العادي
لما دنا الوقت لم تخلف له عدة — وكل شيء بميقات وميعاد
ان يخلعوا فبنو العباس قد خلعوا — وقد خلت قبل حمص ارض بغداد
حموا حريمهم حتى اذا غلبوا — سيقوا على نسق في حبل مقتاد
وانزلوا عن متون الشهب واحتملوا — فويق دهم لتلك الخيل انداد
وعيث في كل طوق من دروعهم — فصيغ منهن اغلال لاجياد
نسيت الا غداة النهر كونهم — في المنشئات كاموات بالحاد
والناس قد ملأوا العبرين واعتبروا — من لؤلؤ طافيات فوق ازباد
حط القناع فلم تستر مخدرة — ومزقت اوجه تمزيق ابراد
حان الوداع فضجت كل صارخة — وصارخ من مفداة ومن فاد
سارت سفائنهم والنوح يصحبها — كانها ابل يحدو بها الحادي
كم سال في الماء من دمع وكم حملت — تلك القطائع من قطعات اكباد

ولا يتسع هذا البحث الموجز لاخبار جميع الشعراء الذين عاصروا المعتمد وقالوا فيه الشعر فهم كثر ولتراجع اخبارهم في مظانها [1]

فن الموشح

وقد تفتحت في اوائل هذا العصر كمائم الشعر الموشح وهو فن جديد في الشعر ابتدعه الاندلسيون وقد اشرنا قبلًا الى خطأ ابن بسام والكتبي وابن خلدون ومن تابعهم بشأن اختراع هذا الفن ونسبته الى ابن عبد ربه صاحب العقد وليس غريباً ان يكون الشخص المقصود هو احد حفداء صاحب العقد لا صاحب العقد نفسه [2] ويهمنا ان نلاحظ هنا ان الموشح قد نشأ في اواخر الدور الاول وان صاحب الفضل الاكبر في تنظيمه واشهاره راجع الى عبادة ابن ماء السماء المتوفى في اوائل القرن الحادي

(١) المقري ٢ : ١١٠٢ - ١١١٢
(٢) راجع بحثنا عن الموشح في ابن عبد ربه وعقده ١٤٧ - ١٥٣

عشر وهو صاحب الموشح الذي يقول فيه :

من ولي في امة امراً ولم يعدل   يعزل الا لحاظ الرشأ الأكحل

جرت في حكمك في قتلي يا مسرفُ
فانصف فواجب ان ينصف المنصف
وارأف فان هذا الشوق لا يرأف

عآل قلبي بذاك البارد السلسل   ينجلي ما بفوادى من جوى مشعل[١]

ويظهر ان الموشحات في اول عهدها كانت تحتوي على بعض اللفظ العامي او الاعجمي ينظم في شطرين يسميان المركز ثم توضع عليها الموشحة دون تضمين فيها ولا اغصان ثم كان الطور الثاني حين استعمل التضمين في المراكز حتى نشأ عبادة المذكور فاحدث التضفير[٢] وذلك انه اعتمد مواضع الوقف في الاغصان وضمنها كما اعتمدوا من قبله مواضع الوقف في المركز وضمنوها وكان في الغالب موضوعها الغزل وكانت تقصد للغناء. فهي من هذه الناحية أثر من آثار النهضة الغنائية التي المعنا اليها ثم عمت واستظرفها الناس وطرقت فيها شتى المواضيع .

قال ابن خلدون: « وأما أهل الاندلس فلما كثر الشعر في قطرهم وتهذبت مناحيه وفنونه وبلغ فيه التنميق الغاية استحدث المتأخرون منهم فناً سموه بالموشح ينظمونه اسماطاً اسماطاً واغصاناً اغصاناً يكثرون من اعاريضها المختلفة ويسمون المتعدد منها بيتاً واحداً . . . . وتجاروا في ذلك الى الغاية واستظرفه الناس جملة الخاصة والكافة لسهولة تناوله وقرب طريقه »[٣] ولقد شعر الاندلسيون بتفوقهم في هذا الفن وزعموا انه الغاية التي وصل الى الشعر قال ابن دحية : « الموشحات هي زبدة الشعر ونسبته وخلاصة جوهره وصفوته وهي من الفنون التي اغرب بها أهل المغرب على أهل المشرق وظهروا فيها كالشمس الطالعة والضياء المشرق . »[٤]

(١) فوات الوفيات للصلاح الكتبي مصر جـ ١ ص ٢٥٥
(٢) راجع الذخيرة القسم الاول المجلد الثاني ص ٢ – ٣ وقد وضع الناشرون سهواً منهم كلمة التغيير بدل التضفير فلينتبه الى هذا .
(٣) مقدمة ابن خلدون ٥٨٣ – ٥٨٤
(٤) المقري ١ : ٤٤٧

ولعل اشهر الوشاحين زمن الطوائف عبادة القزاز شاعر الامير المعتصم ابن صمادح صاحب المرية وقد زعموا انه لم يسبقه وشاح من معاصريه الذين كانوا في زمن الطوائف وهو صاحب الموشح الذي مطلعه .

بدر تم شمس ضحى غصن نقا مسك شم
ما اتم ما اوضحا ما اورقا ما انم
لا جرم من لمحا قد عشقا قد حرم

وليلاحظ هذا التضمين في المركز فهو اشبه بالطي والنشر كأن تقول بدر تم ما اتمه ، وشمس ضحى ما اوضحها وغصن نقا ما اورقه ومسك شم ما اتمه . وكان في طليطلة ابن ارفع شاعر المأمون ابن ذي النون ولكنه لا يجاري عبادة .

ثم اتى دور المرابطين وكان فيه من الوشاحين طائفة اشهرهم الاعمى الطليطلي صاحب :

ضاحك عن جمان سافر عن در
ضاق عنه الزمان وحواه صدري [1]

وابن بقي صاحب :

عبث الشوق بقلبي فاشتكى ألم الوجد فلبت ادمعي [2]

وابو بكر الابيض صاحب :

ما لذ لي شرب راح على رياض الاقاح
لولا هضيم الوشاح اذا اسا في الصباح
او في الاصيل اضحى يقول ما للشمول لطمت خدي
وللشمال هبت فمالى غصن اعتدال ضمه بردي [3]

والحكيم ابو بكر ابن ماجه وكان ينظم الموشحات ويضع التلاحين ويروى عنه انه حضر مجلس سيده ابن تيفلويت صاحب سرقسطه فالقى عليه بعض موشحته في لحن

(١) المقري ٢ : ٨٨٨ ومقدمة ابن خلدون ٥٨٤
(٢) المقري ٢ : ١١١٥
(٣) مقدمة ابن خلدون ٥٨٥

خاص « جرر الذيل ايما جر » فطرب الممدوح لذلك وختمها بقوله :

عقد الله رايـة النصر لامير العلا ابى بـكر

فلما طرق ذلك التلحين سمع ابن تيفلويت صاح واطرباه وشق ثيابه وقال ما احسن ما بدأت وما ختمت وحلف الايمان المغلظة ان لا يمشي ابن ماجة لداره الا على ذهب فخاف الحكيم سوء العاقبة فاحتال بان جعل ذهباً في نعله ومشى عليه [1]

وكان من الوشاحـين زمن الموحدين محمد ابن ابي الفضل ابن شرف وابو اسحاق الدويني وابن هردوس صاحب موشح «ياليلة الوصل والسعود»

وابن مؤهل الذي له :

ما العيد في حلة وطاقِ وشم طيـب
وانما العيـد في التـلاقي مع الحبيب [2]

وابو الحسن سهل ابن مالك بغرناطة وهو صاحب :

كحل الدجى يجري من مقلة الفجر عـلى الصبـاح
ومعصـم النهـر في حلـل خضر من البطـاح

ومن اشهر الوشاحين في هذا الدور ابو بـكر ابن زهر وكان من بيت علم وأدب وكان يزعم ان احسن موشح له هذا الذي يقول فيه :

ما للموله من سكره لا يفيق يـاله سكران
هل تستعاد ايامنـا بالخليج وليـاليـنـا
اذ يستفاد من النسيم الاريج مسك دارينـا
واذ يـكـاد حسن المكان البهيج أن يحيينـا
نهر أظلَه دوح عليه أنيق مؤنق فينـان
والماء يجري وعائم وغريق من جنى الريحان [3]

ثم جاء بعدهم ابن سهل شاعر اشبيلية وسبتة من بعدهـا وله الموشح المشهور

---

(١) المقري ٤ : ٦٠٧ – ٦٠٨ – ومقدمة ابن خلدون ٥٨٤
(٢) مقدمة ابن خلدون ٥٨٥
(٣) راجع المقري ٤ : ٦٠٨ وراجع اخباره في المقري ١ : ٤٤٦ – ٤٤٨

الذي عارضه كثير من الوشاحين بعده :

هل درى ظبي الحمى ان قد حمى　　قلب صب حلّه عن مكنس
فهو في حرّ وخفق مثلما　　لعبت ريح الصبا بالقبس

(✲✲✲)

يا بدوراً أطلعت يوم النوى　　غرراً تسلك في نهج الغرر
ما لقلبي في الهوى ذنب سوى　　منكم الحسن ومن عيني النظر
اجتني اللذات مكلوم الجوى　　والتذاذي من حبيبي بالفكر
كلما اشكوه وجداً بسما　　كالربى بالعارض المنبجس
اذ يقيم القطر فيه مأتماً　　وهي من بهجتها في عرس

الزجل

ولما شاع فن التوشيح ومالت العامة اليه اسلاسته وتنميق كلامه وتصريح اجزائه في وقع موسيقي عذب نسجت العامة من اهل الامصار على منواله ونظموا في طريقتهم بلغة عامة من غير ان يلتزموا اعرابا فاستحدثوا بهذا فناً جديداً سموه بالزجل وقد ظل لهذين الفنين من يرعاهما حتى الدور الاخير

ابو بكر ابن قزمان

كان اول من ابدع واشتهر في الطريقة الزجلية ابو بكر ابن قزمان من شعراء عهد المرابطين وهو عند الاندلسيين امام الزجالين على الاطلاق وقد اهتم المستشرقون بابن قزمان وازجاله وازجال زملائه اللاحقين للصلة التي بين هذه الازجال وبين شعر التروبادور وقد اهملتها الكتب العربية لبعدها عن الفصحى وصعوبة قرائتها غير ان العامة كانت ترويها في المغرب وفي والمشرق وقد ابقى التاريخ لحسن الحظ على كثير من هذه المقطوعات الزجلية وعلى ديوان زجلي لابن قزمان يوجد منه نسخة فريدة ولدينا عنها نسخة مصورة في مكتبتنا اذكر فيما يلي مقطوعة من زجل منها :

(١) المقري ٤ : ٦٣٤-٦٣٥

مـاعي انا معشوق　　شاط ابيض اشقر
ريت القمر بالليل　　هـو يلمـع اكـثر

(✲✲✲)

غـابعني الغـدّار　　وثـم جـاني
ان يفتقد حـالي　　وان يـرانـي
اطبق على فمي　　اخـرس لساني
وكان نجال مبرد　　فـيما نقـدر

(✲✲✲)

والعشق ما احلاه　　ومـا امـره
وما ازعج الهجران　　ومـا احـره
وما احزن العاشق　　ومـا اسـره
والعاشق المسكين　　بَي ذنب يهجر

✲✲✲

اي حظ لو عندي　　لس كان دريتو
هو ما فتحت الباب　　حـتى لقـيتو
كبرت انا يا أخي　　وقت ان رأيتو
من رأى هلال العيد　　لا بد يـكبر (١)

ويجب ان يقرأ على الطريقة البدوية ولا اظنها بعيدة عن اللهجة المراكشية العربية التي كانت فاشية ذلك الزمان ولو قرىء على غير هذه الطريقة لضاعت موسيقاه وبعد عن الاصل الذي وضع فيه

ثم جاء بعد ابن قزمان زجال اسمه عبد الله ابن الحـاج ويعرف بمدغليس وكان يلتفت الى الصناعة في اللفظ في ازجاله فكان اهل الاندلس يقولون ابن قزمان في

(١) ديوان ابن قزمان – الصورة الفوتوغرافية عن نسخة برلين الخطية ورقة ١٣ من الزجل السادس عشر – ولقد تصرفت قليلاً في كتابة الضمائر لتسهيل قرائة الزجل .فالنسخة الاصلية تستعيض عن ضمير الغائب بضمة مثلاً لقيت بدل لقيتو او لقيته الخ

في الزجالين بمنزلة المتنبي في الشعراء ومدغليس بمنزلة ابي تمام بالنظر الى ان ابن قزمان مطبوع يلتفت الى المعاني ومدغليس يؤثر الصناعة واللفظ وكان مدغليس كابن قزمان شاعراً يحسن النظم الفصيح ولكنه لما رأى نفسه في الزجل انجب اقتصر عليه.[1] وله يصف رذاذاً من المطر تنعكس عليه اشعة الشمس فتكسبه لوناً مذهباً ثم يشرب النبات من هذا الرذاذ فيسكر وترقص الغصون وتطرب وتحاول وهي تتمايل ان تصل الى الجالسين في ظلها فتستحي وتعود .

ورذاذ دق ينزل — وشعاع الشمس يضرب
فترى الواحد يفضض — وترى الآخر يذهب
والنبات يشرب ويسكر — والغصون ترقص وتطرب
وتريد تجي الينا — ثم تستحيي وترجع[2]

وظل لهذين الفنين الزجل والموشح رونقهما حتى عصور الاندلس الاخيرة وختم دورهما بالاندلس في آخر عصر بني الاحمر بشيخ الزجالين والوشاحين لسان الدين الخطيب وتلميذه ابن زمرك وكان لسان الدين رفيق ابن خلدون وزميله وهو صاحب الموشح الذي عارض به موشح ابن سهل « هل درى ظبي الحمى ان قد حمى » قال :

جادك الغيث اذا الغيث همى — يا زمان الوصل بالاندلس
لم يكن وصلك الا حلما — في الكرى او خلسة المختلس

* * *

اذ يقود الدهر اشتات المنى — ينقل الخطو على ما ترسمُ
زُمراً بين فُرادى وثُنى — مثل ما يدعو الوفود الموسمُ
والحيا قد جلل الروض سنا — فثغور الزهر منه تبسمُ
وروى النعمان عن ماء السما — كيف يروي مالك عن أنسِ
فكساه الحسن ثوباً معلماً — يزدهي منه بابهى ملبسِ

(١) المقري ٢ : ٨٧٨
(٢) المقري ٢ : ٦١٢

في ليال كتمت سر الهوى بالدجى لولا شموس الغرر
مال نجم الكاس فيه وهوى مستقيم السير سعد الاثر
وطرٌ ما فيه من عيب سوى انه مر كلمح البصر
حين لذّ الانس شيئاً او كما هجم الصبح هجوم الحرسِ
غارت الشهب بنا او ربما أثرت فينا عيون النرجسِ

* * *

اي شيء لامرىء قد خلصا فيكون الروض قد مكن فيه
تنهب الازهار منه الفرصا امنت من مكره ما تتقيه
فاذا الماء تناجي والحصا وخلا كل خليل بأخيه
تبصر الورد غيوراً برما يكتسي من غيظه ما يكتسي
وترى الآس لبيباً فهما يسرق السمع باذني فرسِ

* * *

ما لقلبي كلما هبت صبا عاده عيد من الشوق جديد
كان في اللوح له مكتتبا قوله ان عذابي لشديد
جلب الهم له والوصبا فهو للاشجان في جهد جهيد
لاعج في اضلعي قد اضرما فهي نار في هشيم اليبس
لم يدع في مهجتي الا ذما كبقاء الصبح بعد الغلسِ (١)

شعر الطبيعة

بقي شيء واحد اكثر فيه الاندلسيون وتفننوا في نظمه ذلك هو شعرهم في الطبيعة ووصفهم لما حبتهم به هذه الطبيعة من جمال اقليم واعتدال مناخ ورقة هواء وكثرة جنائن فيها من ضروب الازهار والرياحين ما تشاء . كأن الاندلس جنة الله في ارضه ولقد شعر بهذا احد شعراء الطبيعة عندهم في عصر الطوائف ولعله اعظم شعراء

(١) الموشح طويل وقد اقتصرنا منه على بعض ادوار راجع مقدمة ابن خلدون ٥٨٦ – ٥٨٧ والمقري ٤ : ٦٠٩ – ٦١٠

وهكذا فان مميزات الادب الاندلسي شعراً كان او نثراً لا تختلف عن مميزات الادب الشرقي الا بشيء بسيط هو الرقة والجزالة هذه السنَّة التي سنها له في اول عهدالاندلس بالادب عبد الرحمن الداخل ولعل هذا هو الذي يسَّرَ للمرأة الاندلسية ان تساهم في الحياة الادبية الى حد ما ومكن الملوك والوزراء والامراء من تذوق الادب واستساغته والاشتراك فيه ومع ان الشعر منه لم يكن في مرتبة بعض شعر المشرق من حيث المعاني والصور الفكرية فانه في الغالب ارق منه واجزل ولقد شعر الاندلسيون بهذه الظاهرة في ادبهم حين قال ابن بسام: ذهب كلامهم بين رقة الهواء وجزالة الصخرة الصماء او حين قال صاحبهم عبد الجليل ابن وهبون يصف شعره.

رقيق كما غنت حمامة ايكة وجزل كما شق الفضاء عقاب[1]

جبرائيل جبور
الجامعة الاميركية : بيروت



(١) الذخيرة القسم الاول المجلد الاول ص ٣